آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة السابعة : العددان السابع والعشرون والثامن والعشرون - رمضان ١٤٢٠ هـ - كانون الثاني (يناير) ٢٠٠٠ م

■ مصحف شريف كتب في القرن التاسع

A COPY OF THE HOLY QURAN

written in the 9th century A. H.

(٤)

إسهام بعض المستشرقين الأوربيين في حركة البحث العلمي للتراث الشعبي المصري

الأستاذ الدكتور/ حسن أحمد الخولي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الإمارات العربية المتحدة

مقدمة

تحظى الثقافة المصرية بعامة، والتراث الشعبي بخاصة، باهتمامٍ كبير من جانب كثيرٍ من المستشرقين الأوربيين. ويمتد هذا الاهتمام إلى عصور ما قبل الميلاد، فقد زار الإغريقي «هيرودوتس» مصر، وتحدث عن أهلها وحضارتها، وقال قولته الشهيرة: «إن مصر هبة النيل». غير أنني سأقدم بإيجاز في هذه العجالة بعض أمثلة لأعمال عددٍ من المستشرقين الأوربيين التي ظهرت في المدة من أواخر القرن الثامن عشر إلى العقد الثالث من القرن العشرين، متضمّنة وصفًا وتسجيلاً لكثيرٍ من عناصر التراث والحياة الشعبية في مصر.

وتعدّ هذه الأعمال، بحقّ، عاملاً مهمًا من عوامل تقدم حركة البحث العلمي للتراث الشعبي المصري، التي ظهرت واطّرد نموها منذ بداية الخمسينات من هذا القرن، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن من نضجٍ يشهد عليه وجود «علم الفولكلور» بصفته علمًا يدرّس بالجامعات المصرية، وتمنح فيه الدرجات العلميّة المتخصصة (الليسانس، والماجستير، والدكتوراه)، وتشتغل به مدرسة علميّة راسخة، تضم أجيالاً من الأساتذة، والتلاميذ، وطلاب العلم الباحثين المعنيين بالتراث الشعبي المصري والعربي أكاديميًّا على المستويين النظري والمنهجي، وعمليًّا فيما يتعلق بجمع التراث، وتصنيفه، وحفظه، وتناوله بالدراسة والتحليل والمقابلة، على أسسٍ علميّة، في ضوء البعدين التاريخي والجغرافي (أي البعدين الزماني والمكاني)، إضافة إلى البعدين الاجتماعي والنفسي؛ لتتبع ما يطرأ عليه من تغيّرات في إطار التاريخ العلمي لتطور الثقافة والحياة الاجتماعية في مصر والعالم العربي، وإبراز علاقات التفاعل والتأثير المتبادل بين الثقافة المصرية وغيرها من الثقافات الأخرى على النطاقين الإقليمي والعالمي[1].

وتتمثل أهميّة الأعمال التي قام بها المستشرقون الأوربيون، فيما يتعلق بدفع حركة البحث العلمي للتراث الشعبي المصري، في أنها قد ساعدت على وجود تراكم من المعلومات والمعارف حول التراث والحياة الشعبية المصرية في مددٍ زمنية سابقة، مما

ييسّر على الباحثين في الوقت الحاضر مهمّة التناول العلمي لموضوعات التراث الشعبي المصري في ضوء البعد التاريخي، وذلك بالرجوع إلى المادة العلميّة الوصفيّة التي تجمعت لديهم من أعمال المستشرقين؛ أي إن هذه الأعمال تعدّ همزة وصل بين الماضي والحاضر، يستطيع الباحث من خلالها أن ينظر إلى التراث الشعبي كسلسلة مترابطة الحلقات.

ونظرًا للأهميّة التي تنطوي عليها أعمال المستشرقين وجدت اهتماماً كبيرًا من جانب عددٍ من المهتمين بالثقافة المصرية بعامة، والباحثين المتخصصين في علم (الفولكلور) والتراث الشعبي المصري بخاصة. ويتجلى ذلك في ترجمة بعض الكتب الأصلية التي ترجمت فيها هذه الأعمال إلى اللغة العربية، حيث إنها قد صدرت في الأصل بالفرنسيّة، أو الإنجليزية، أو الألمانية، تبعًا لانتماء كل مؤلف، وسوف أشير إلى ذلك في موضعٍ لاحق عندما أقدّم نماذج من أعمال المستشرقين. وإضافة إلى الترجمة قام بعض المهتمين بالتراث الشعبي المصري، الغيورين عليه، والحريصين على دفع مسيرة البحث العلمي فيه إلى الأمام، بتناول بعض أعمال المستشرقين تناولاً تحليليًّا نقديًّا موضوعيًّا، يبرز ملامحها المنهجية، ويضعها في إطارها الصحيح بالنسبة لحركة البحث العلمي في التراث الشعبي المصري(٢).

نماذج من أعمال المستشرقين

سوف أقدّم فيما يأتي بعض نماذج من أعمال المستشرقين الأوربيين، التي تعدّ علامات مهمة على طريق البحث العلمي للتراث الشعبي المصري. وسوف يتضح أن بعضًا منها يرجع إلى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، بينما ينتمي بعضها الآخر إلى القرن العشرين. كما أنها تمثل «الاستشراق الفرنسي»، و«الاستشراق الإنجليزي»، و«الاستشراق الألماني»، إن جازت هذه التسميات. وتتفاوت فيما بينها من حيث الضبط والإحكام المنهجي، فكلما كان العمل حديثًا؛ أي متأخّرًا في ترتيب الأسبقية الزمنيّة، كان أكثر إحكامًا وتمشّيًا مع قواعد المنهج العلمي، وأخلاقيات العمل الميداني في دراسة التراث الشعبي.

النموذج الأول

دراسة للعادات والتقاليد في كتاب وصف مصر:

مؤلف هذا الكتاب الفرنسي «جلبير جوزيف جاسبار كونت دي شابرول» (Comte de Chabrol (Gilbert Goseph Gaspard) (١٧٧٣ - ١٨٤٣). جاء إلى مصر مع الحملة الفرنسية عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره، ويتضح من كتابه مدى تحمّسه لدراسة عادات المصريين وتقاليدهم، واطلاعه على تاريخ الفراعنة، وإلمامه بالمراجع الكلاسيكية عن مصر، وبخاصة مؤلفات هيرودوت، وديودور الصقلّي، وغيرهما. كما يتضح من هذا الكتاب أيضًا أن صاحبه قد أحاط بشكلٍ جيّد أبرز كتب الرحلات التي صدرت حتى عصره عن المنطقة. ومن هذه الكتب مؤلّفي ڤولني Volney: الأول عن «الحالة السياسية في سوريا» (بلاد الشام)، والثاني عن «رحلة إلى مصر وسوريا». وكتاب «سابارى» المعنون بـ«رسائل عن مصر». كما أنه قد ناقش بعض التفاصيل في أعمال زملائه من علماء الحملة الفرنسية على مصر، منها على سبيل المثال: دراسة «جومار» Jomard التي عقد فيها بعض المقابلات بين سكان مصر الحديثة وسكانها القدامى. ودراسة «أميديه جوبير» Amedée Jaubert التي قدّم فيها إحصاءً أشرف على إجرائه عن سكان مصر. ودراسة «ڤيلوتو» Villoteau عن موسيقا المصريين المحدثين. ودراسة «كوستاز» Costaz عن وصف مدينة طيبة. ودراسة «چاكوتان» Jacotin عن مساحة أرض مصر، ...إلخ.

تقع الترجمة العربية لهذا الكتاب في نحو ثلاثمئة صفحة، متضمّنة ستة فصول وثلاثة ملاحق. يتناول الفصل الأول: مقدمة عامة عن الطقس والسكان. ويتناول الثاني: الإنسان المصري في سنوات عمره الأولى؛ الطفولة والتربية، والفنون والعلوم والآداب.

ندوة الاستشراق في العلوم الإنسانية والاجتماعية

ويتناول الفصل الثالث: الإنسان المصري في طور الرجولة، العادات المدنية الأسرية. ويتناول الرابع: الإنسان المصري في طور الشيخوخة؛ الموت والجنازات. ويتناول الخامس: النظم والمؤسسات. أما الفصل السادس: فيتناول التجارة والصناعة والزراعة.

وعلى امتداد هذه الفصول يورد دي شابرول كثيرًا من التفاصيل حول جوانب الحياة المصرية المختلفة. وعلى الرغم من عدم تخصّصه في الدراسات الاجتماعية – حيث كان مهندسًا بالسكك الحديدية – إلا أنّ كتاباته وتحليلاته كانت تكشف في كثيرٍ من الأحيان عن تمتعه **بحسٍّ اجتماعي ناضج**. ففي حديثه عن أغنياء المدن يقول: «... فأنت تراهم ممدّدين لجزءٍ طويل من النهار على أرائكهم أو على حُصرهم حسب درجة ثرائهم، حتى تظن أن ليس ثمة في هذه الدنيا ما يشغلهم إلاّ أن يملؤوا ويفرغوا على التوالي (نارجيلاتهم) الطويلة. وتبدو مخيلتهم كأنما قد تمدّدت مثل أجسامهم إلى حدّ تخال معه – وهم في حالة التنويم الروحي تلك – أن سماعهم لحكم بالموت صادر عليهم لن يكون بمقدوره أن يثير دهشتهم. على الرغم من ذلك، إلاّ أنه تحت قناع السلبية البادية على ملامحهم يكمن خيال ملتهب. وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية: فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم على العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدّة، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعاتٍ من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين على الإتيان بأفعال بالغة الجرأة.. إن مَلَكة الانتباه، والقدرة على التركيز تذهب إلى أبعد مدى عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة».

ثم يتحدّث عن **الطبقات الكادحة في الريف والمدينة**، فيقول: «... وعلى الرغم من ذلك، إلا أن للطبقات الشعبية تقاليد أقل تخنثًا، فذلك الرجل البائس الذي يتوقف بقاؤه على قيد الحياة على عمله اليومي الدؤوب، نشيطٌ بالضرورة إلى حدّ لا يمكن معه أن ينال منه التعب. ويتحمل الفلاح النيران التي تصبّها عليه السماء الملتهبة؛ لكي يبذر الأرض التي تمدّه بضرورات أسرته. وسوف يُدهش الأوربي الذي سبق له أن رأى الأثرياء المصريين ممدّدين على أرائكهم في رخاوة، بل يمكن القول إنهم يخشون من أن ينال منهم التعب لو أنهم أتوا بإشارة إلى خدمهم. سوف يُدهش عندما يرى السايس أو خادم الاسطبل في أثناء تدريبات المماليك العسكرية، وهو يجري أمام حصان سيده، ويتابع كل حركاته لساعاتٍ طوال دون أن تبدو عليه أقل إمارات التبرّم أو الضجر، في الوقت الذي تلقي الشمس الملتهبة على جسمه العلوي شواظًا من رصاص، ويؤخذ هؤلاء الخدم (السياس) من طبقة الفلاحين عادة».

ويوضح دي شابرول الفوارق بين حياة النساء المصريات في كلٍّ من الطبقتين؛ الغنية والفقيرة. ولقد كان موضوعيًّا ومنصفًا في حديثه عن **كبار السنّ وما يحظون به من تكريم**، حيث يقول: «... وفي واقع الأمر أن الأوربيين لا يمكنهم أن يرضوا عن أنفسهم بثقةٍ وإعجاب عندما يرون هذا الاحترام الذي يبلغ مرتبة التقديس، والذي توليه الأمّة الإسلامية لكبار السن. فهؤلاء الناس الذين نطلق عليهم النعت المقزز المرعب، المتوحشين والبرابرة، يقدمون لنا في هذا الخصوص مثالاً يجدر بالاحتذاء على أجمل الفضائل، في حين أنها قلّ أن تنال اهتمامنا، مع أنها تستحق كل إجلال. أما هنا في مصر، فكم يعرف الشيوخ ما سوف يلقون من محبة الشباب وعواطفهم».

ومن أعمق ما كتب دي شابرول في كتابه – فيما ترى علياء شكري – **حديثه عن القضاء في مصر**، حيث تحدث عن طبيعة الأشخاص المؤهّلين لشغل مناصب القضاء، وعدد هذه المناصب، واختصاصاتها، وإنهاء خدمة القضاة العاملين، وبيع هذه الوظائف، ووظائف مساعدي هؤلاء القضاة، ..إلخ. ويكشف حديثه هذا عن كثيرٍ من السمات النفسية والاجتماعية لشخصيّة الفلاّح المصري، ويمثل خلفيّة غنيّة لفهم عديدٍ من أنواع الأدب الشعبي؛ من فكاهات، ونوادر، وأغانٍ، وأمثال شعبية، وحكايات، ...إلخ. كما تلقي الضوء على

اتجاهات الفلاح المصري نحو الحكومة وموظفيها، وثقته المزعزعة في أن يلقى الإنصاف يومًا من العدالة وممثّليها، وتأكّده من أنه سيكون الخاسر في كل مواجهاته «رسمية» بينه وبين ممثلي النظام الحاكم، وذلك بسبب استبداد الحكم العثماني والمملوكي بإرسال قضاة لكل ولايات مصر من العثمانيين، الذين يحكمون بين الناس ولا يعرفون حرفًا واحدًا من العربية، والابتزاز الذي يمارسه المترجمون الذين يمثلون شقّ الرحى الثاني الذي يطحن الفلاح البائس.

لقد كانت نظرة دي شابرول إلى المصريين والثقافة المصرية تتسم بالاستعلاء والعنصرية، كما كانت نظرته عدائيّة أيضًا بالنسبة للإسلام. فهو يرى أن الشعب المصري معدنه ثمين، وأنه سوف يكون له شأنٌ عظيم إذا وجد من يأخذ بيده ويعيده إلى حظيرة الحضارة (أي الحضارة الأوربية). ويتضح ذلك من حكاية أوردها، يقول فيها:

«ذات يوم قام أحد الدلالين لنا بعملية تجارية عادت عليه بربح قدره ثمانون فرنكًا. وبعد مدة من الوقت ذهبنا لنحدّثه في أمر صفقة أخرى لا تقلّ عن الأولى عطاءً بالنسبة له، وكان جالسًا على المقهى يدخن [نارجيلته] بعظمة، وبصعوبة شديدة أصاخ السمع للعروض التي قُدّمت له، ولأننا ألححنا في الطلب، فقد ردّ: لست أحتاج إلى شيء، اذهبوا إلى فلان فهو بائسٌ فقير، وسيفعل لكم ما تطلبونه منه مثلي تمامًا..».

لقد ذكرنا هذه الواقعة ذات الدلالة لكي نقدم مثالاً على ذلك التناقض الذي يسيطر دائمًا، والذي يقوم بين الطباع والسلوك. ومع ذلك فليس ثمّة ما هو أكثر كرمًا ولا أكثر عظمة من ذلك، بل لا أكثر حكمة مما يتّضح في هذا السلوك. ألست على حقّ إذًا حين آمل بأنه سيكون في الإمكان أن نُدخل عند أمثال هؤلاء القوم أفكارًا أكثر عدالة إذا ما شعّت عليهم أضواء الحضارة الأوروبية.

هكذا تناول دي شابرول الثقافة المصرية في المدّة من ١٧٩٨ إلى عام ١٨٠١م. ولكنّ هناك مستشرقًا إنجليزيًّا هو «إدوارد ويليام لين» E. W. Lane قد أجرى دراسات عن المصريين، وله كتب من أهمها كتابه: «المصريون المحدثون، عاداتهم وشمائلهم»، الذي صدر في طبعته الأولى في لندن عام ١٨٣٦(٤). وهذا الكتاب، على الرغم من قدمه النسبي – فيما يرى محمد الجوهري – إلاّ أنه يعدّ مرجعًا أساسيًّا لاستقراء كثير من العادات والممارسات الشعبية، والمعتقدات.. إلخ بسبب براعة مؤلفه ودقة ملاحظاته، إلى جانب انفراده في هذا المجال، حيث لا يوجد مؤلف مصري ولا أجنبي زخر بكل هذا الحشد الهائل من المادة (الفولكلورية) سواه. ولكن ما دمنا نركز هنا على الضبط والإحكام، لا بدّ لنا من أن نذكر أنّ مما يؤخذ على لين أنه لم يعر البعد المكاني للمادة التي أوردها أيّ اهتمام. فقد ركز دراسته على القاهرة، واعتقد بذلك أنه يستطيع أن يعمم الدراسة حتى تشمل مصر بأقاليمها المختلفة؛ أي إنه عدّ مصر وحدة واحدة ذات خصائص مشتركة(٥).

النموذج الثاني

دراسة أنثروبولوجية حديثة لفلاحي الصعيد(٦):

صاحبة هذه الدراسة الأنسة «وينفريد بلاكمان» W. Blackman، التي كانت تعمل معيدة بجامعة أكسفورد، في تخصص الأنثروبولوجيا، عندما جاءت إلى مصر في عام ١٩٢١. ومن ثم فقد كانت باحثة ناضجة، ملمّة بقواعد البحث العلمي وفقًا للمنهج الدقيق، إضافةً إلى الالتزام بأخلاقيات العمل الميداني.

وعلى امتداد خمس سنوات استطاعت أن تُجري دراسة ميدانية على الفلاحين في صعيد مصر، انتهت منها في عام ١٩٢٦م؛ أي قبل عام واحد من صدور كتابها (فلاحو الصعيد)، الذي أشرت إليه من قبل.

ومما يدل على نضج الباحثة أنها كانت على وعي تامّ بأن الفلاحين المصريين هم الذين يحافظون على

العادات والتقاليد، وعلى عناصر التراث الشعبي، التي اختفى كثيرٌ منها من حياة أبناء الطبقات العليا في مصر؛ أي إنها كانت تهدف من دراستها إلى تسجيل حياة المصريين المعاصرين ودراستها، وتنبيه المثقفين من أبناء هذا الشعب إلى حقيقة مهمّة، هي أن التراث الذي كان منتشرًا في الماضي بين كل فئات الشعب بدأ يختفي تدريجيًّا، وذلك بدءًا من الطبقات العليا، وأنه في طريقه إلى الاختفاء كليّةً تحت وطأة التغيّر الاجتماعي السريع، وأنّ على هؤلاء المصريين أن يتحملوا هم أنفسهم عبء المسارعة إلى تسجيل هذا التراث الحيّ قبل أن يُطوى في طيّ النسيان. ولن يستطيع تحقيق هذا الهدف الصعب باحثٌ واحد، أو عدة أفراد قلائل، ولكنه جهدٌ ضخم شاقّ يحتاج إلى أن يتم في إطار مؤسسة عامّة تحظى بالتشجيع الحكومي، وتتميز بالتنظيم العلمي الحديث.

وتدلل علياء شكري على ذلك مستشهدة بما أوردته «بلاكمان» في الصفحة العاشرة من كتابها، حيث تقول: «إنني أتوق إلى اليوم الذي يدرك فيه المثقفون المصريون أهمية الدراسة الأنثروبولوجية والفولكلورية لبلدهم. وغاية أملي أن يقتنع بعضهم بالقيام بعبء هذه الدراسة. ومن المؤكد أنهم – إذا ما نالوا التدريب السليم – فسيكونون أقدر من يستطيع الاضطلاع بالدراسة الأنثروبولوجية لأبناء شعبهم. وإني لآمل أن يتمّ في القريب تأسيس معهد أنثروبولوجي مزدهر في القاهرة، يكون مركزًا لإجراء مثل هذه البحوث، ليس في مصر وحدها، وإنما في البلاد المجاورة أيضًا؛ إذ من يدري إلى أي مدى امتدّ تأثير الثقافة المصرية القديمة».

وكانت «بلاكمان» ترمي من وراء دراستها إلى رؤية الثقافة المصرية المعاصرة في سياقها التاريخي الخاص بها أيضًا، حيث إنّ هناك عناصر استمرار في الثقافة المصرية على امتداد آلاف السنين. ومن ثم يؤدي فهم الثقافة المصرية المعاصرة إلى إلقاء الضوء على بعض غوامض التاريخ المصري القديم.

لقد اتّسمت دراسة بلاكمان بالشمول، ويتضح ذلك من تقسيمها لموضوعات كتابها إلى ثمانية عشر فصلاً، هي:

١ – القرى المصرية وسكانها.

٢ – النساء والأطفال.

٣ – الزينة والحلي الشخصية.

٤ – الميلاد والطفولة.

٥ – الزواج والطلاق.

٦ – طقوس الخصوبة.

٧ – الموت والشعائر الجنائزية.

٨ – النزاعات بين القرى.. قانون الثأر.

٩ – الصناعات (التقليدية) سوق القرية.

١٠ – الزراعة وطقوس الحصاد.

١١ – السحرة والسحر.

١٢ – طبيب القرية (الشعبي) وطبيبة القرية (الشعبية).

١٣ – العين الشريرة وخرافات أخرى.

١٤ – العفاريت.

١٥ – الشيوخ المسلمون والقديسون الأقباط.

١٦ – بعض الأعياد الدورية.

١٧ – راوي (شاعر) القرية وحكاياته.

١٨ – المماثلات المصرية القديمة.

وإضافةً إلى هذه الفصول يضمّ الكتاب مجموعة من الفهارس المهمة، والصور الفوتوغرافية، التي تظهر عناصر الثقافة المادية، ويقع الكتاب في ثلاثمئة صفحة من القطع الكبير.

وعلى الرغم من أن «بلاكمان» باحثة متخصصة، وتسلك في دراستها طبقًا للمنهج العلمي والأصول المتبعة في العمل الميداني، إلا أنها، بصفتها باحثة أجنبية وغريبة عن الثقافة المصرية، قد جانبها الصواب في بعض الأحيان، من خلال أحكام متسرّعة، قائمة على المقابلة بين الثقافة الإنجليزية والثقافة الريفية المصرية.

النموذج الثالث

«الفولكلور المصري»
(هانز فينكلر، والدراسة العلمية للتراث الشعبي المصري)(٧):

صاحب كتاب «الفولكلور المصري» العالم الألماني «هانز ألكسندر فينكلر» Alexander Winkler Hans، الذي درس الاستشراق مع التخصص في اللغة والثقافة العربيتين على يد المستشرق الألماني «إنو ليتمان» Enno Littmann. وقد تخرج «فينكلر» في عام ١٩٢٩م في الجامعة برسالة للدكتوراه عن «الأختام والأشكال في السحر الإسلامي»، صدرت في كتاب عام ١٩٣٠. وبعد تخرجه، بدأ يركّز اهتمامه على الدراسة في مصر، فقام برحلاتٍ طويلة لا تفصل بينها مدد زمنية طويلة إلى مصر وريفها، فلم يعمد إلى الإقامة بالقاهرة وغيرها من المدن. وفي عام ١٩٣٤م أخرج باكورة دراساته الميدانية، وهي دراسة مونوجرافية عن قرية «الكيمان» التابعة لمحافظة قنا. وفي أثناء إقامته الطويلة بقرية «الكيمان» استطاع أن يقوم بزيارات، ويجمع مادة عن أحد الرجال بقرية «نجع الحجيري»، وكانت تلبس هذا الرجل روح أحد أسلافه من الموتى، فيصاب بحالة هستيرية يتمكن خلال هذه الحالة من معالجة المرضى، ... وما إلى ذلك من أمورٍ يلجأ إليه الناس فيها. وأصدر هذه الدراسة المونوجرافية عام ١٩٣٦م بعنوان «أرواح الموتى التي تلبس الأحياء».

وبعد دراسات ميدانية، وخبرة طويلة، وعمل شاقّ متصل في أعماق الريف المصري، امتد طوال خمس سنوات، جاء كتاب (الفولكلور المصري) مطبّقًا أحدث النظريات، وآخذًا بأحدث الأفكار في علم الفولكلور في ذلك الوقت، محدّدًا الطريق أمام كل من يريد العمل في ميدان التراث الشعبي المصري، جمعًا ودراسة.

وكان «فينكلر» قد فطن - فيما يرى محمد الجوهري - إلى أهمية دراسة الفولكلور دراسة علميّة تستند على منهجٍ دقيق يتّصف بالضبط والإحكام. **ذلك لأن هدفه البعيد كان إنشاء أطلس فولكلور مصري، يوضح المناطق الثقافية التي ينقسم إليها الشعب المصري، مع محاولة تحديد مؤثرات القارّات الثلاث على أرض مصر، وأثرها هي الأخرى في شعوب تلك القارات، بخاصة أن مصادر التاريخ المصري تمدّنا بمعلوماتٍ ذات عمقٍ تاريخي يمتد إلى حوالي خمسة آلاف سنة**. ولا شك أن مثل هذا العمل يساعدنا على تحديد المراحل الكبرى في التاريخ المصري، وتعرّف حركات الشعوب داخل مصر(٨).

ومما يضفي على كتاب «فينكلر» أهمية كبرى أنه يعدّ أكبر حشد لمادة فولكلورية مصرية بعد كتاب العالم الإنجليزي «إدوارد ويليام لين»، الذي سبقت الإشارة إليه، عن عادات المصريين المحدثين. كما أنه يتميّز عن الكتاب الأخير من نواحٍ عدّة، كوجود **خطة ذات هدفٍ واضح**، حيث أصبح أكثر من عملية جمع وتسجيل محضة، تستهدف تعرّف التاريخ الحضاري والواقع الاجتماعي للشعب المصري. **واتساع نطاق ظواهر التراث الشعبي التي تعرض لها بالدراسة**، مع التركيز على عناصر الثقافة المادية من أدوات عمل وإنتاج. **واتساع نطاق المصدر الذي جمعت منه هذه المادة**، حيث إنه قد شمل مصر من شمالها إلى أقصى جنوبها، ومن شرقها إلى غربها؛ إذ إن دراسة فينكلر قد شملت ثلاثًا وعشرين قرية مصرية موزعة على امتداد الوادي والدلتا.

لقد حقق كتاب «الفولكلور المصري» شهرة واسعة بسبب تطبيقه مناهج وجدت وطبقت في أوروبا، كطريقة **أطلس الفولكلور**. فقد كان يعمل في جمع مادة كتابه في الوقت الذي كانت تقوم فيه جمعيات الفولكلور الألماني وهيئاته بجمع مادة الأطلس، وهو نفسه الأطلس الرائد بالنسبة لأطالس الفولكلور في العالم. وقد أشاد العالم الألماني الشهير «ڤيل إريسن بويكارت» في كتابه «الفولكلور» الصادر عام ١٩٥١ بالمحاولة التي أقدم عليها فينكلر، وهي تطبيق طريقة الأطلس في بلدٍ غير أوروبي.

ومن الطرق الجديدة التي أخذ بها فينكلر في كتابه أيضًا، الطريقة التي اشتهرت باسم «**الكلمات والأشياء**»، وهي التي تستدل من أسماء الآلة أو الأداة على التاريخ الاجتماعي لها. وتساهم بدورٍ أساسي في تحديد **المناطق الثقافية** وإبرازها. وقد حدد فينكلر على هذا الأساس ست مناطق ثقافية ينقسم إليها الشعب المصري، هي:

١ – المنطقة الجنوبية: وتبدأ من «غرب أسوان» حتى «نزلة عبدالله» بالقرب من أسيوط.

٢ – المنطقة الوسطى: وتبدأ من شمال «نزلة عبدالله» وتصل إلى بداية الدلتا. وقد سمّاها «شمال الصعيد».

٣ – المنطقة الشمالية: وهي الدلتا. وسمّاها «منطقة وجه بحري».

٤ – الواحات الخارجة.

٥ – بدو العبابدة.

٦ – أنصاف البدو «العزايزة».

يقع كتاب «الفولكلور المصري» في حوالي خمسمئة صفحة من القطع الكبير، وملحق مكوّن من مئة لوحة وعشر تضم حوالي مئتي صورة ورسم تخطيطي. وينقسم الكتاب إلى خمسة أبوابٍ كبرى. يتضمن الأول منها: «**انطباعات عامة**» عن رحلات فينكلر بين الأماكن التي درسها (٢٣ قرية)، وأهداف مشروعه البحثي، وطريقته في جمع المادة، والصعوبات التي تعرّض لها في دراساته الميدانية. ويتضمن الباب الثاني: «**ملاحظات فولكلورية على الفلاحين**»، تتضمن ستة عشر فصلاً، تتناول جوانب العمل الزراعي المختلفة، وأدواته، وبعض المعتقدات الشعبية لدى الفلاحين. ويتضمن الباب الثالث: «**ملاحظات فولكلورية على البدو**»، مشتملاً على عشرين فصلاً، تتناول حياة بدو العبابدة في الصحراء الشرقية. ويتضمن الباب الرابع: «**دراسات لغوية عند الفلاحين والبدو**»، وهي دراسة دقيقة للّهجات. وأما الباب الخامس والأخير فقد جاء: «**حول تطور بعض الأدوات الزراعية وانتشارها**».

خاتمة

وبعد، فقد قدّمت في الصفحات السابقة ثلاثة نماذج من أعمال المستشرقين الأوربيين، التي تمثل علامات بارزة على طريق الدراسة العلمية للتراث الشعبي المصري. وإنني أدين إلى الأستاذة الدكتورة علياء شكري بتقديمي لهذه النماذج، فقد اعتمدتُ في تقديمي إيّاها على كتابها (التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية) الذي أشرت إليه من قبل. وإذا كان هناك من فضل ينسب إلى هؤلاء المستشرقين لما قدّموه من أعمال، هي في حقيقتها تعدّ إسهامًا في إثراء حركة الدراسة العلميّة للتراث الشعبي المصري، نظرًا لما تزخر به من مادة فولكلورية بالغة القيمة، لما تنطوي عليه من بُعد تاريخي، فهذه المادة، القديمة نسبيًّا، تمثل بالنسبة للباحثين الحاليين المشتغلين بالتراث الشعبي المصري، ومن سيأتي من بعدهم من الباحثين مستقبلاً، سجلاً حافلاً، ومنهلاً عذبًا يرتوي منه كل ظمآن متعطش إلى الوقوف على ملامح الثقافة والحياة الشعبية في مصر في العقود الماضية. إضافة إلى القيمة المنهجية التي تنطوي عليها هذه الأعمال. أقول إذا كان هناك من فضل مستحقّ لأصحاب هذه الأعمال، فإن الفضل يجبُ أن ينسب أيضًا إلى الرواد والأساتذة المصريين الذين بذلوا كل جهدٍ مخلص في سبيل إرساء دعائم «علم الفولكلور» في مصر والعالم العربي. وقد ذكرت بعضًا منهم، وأعود فأخصّ بالذكر الأستاذين الجليلين الدكتور محمد الجوهري، والدكتورة علياء شكري.

لقد مهّد هؤلاء الأساتذة الطريق؛ إذ قاموا بترجمة بعض هذه الأعمال من لغاتها الأصليّة إلى اللغة العربية، فأصبحت بذلك متاحة وميسورة أمام الباحثين من المصريين والعرب. كما تناولوها بالدراسة والتحليل العلمي، والمناقشة النقدية، وإبراز قيمتها المنهجية، وخبرات أصحابها وتجاربهم، فجعلوا منها دروسًا مستفادة، ومادة «للتنشئة العلمية»، يتعهدون بها طلاب العلم من الدارسين والباحثين والتلاميذ.

لقد قمت بتقديم ثلاثة نماذج من أعمال المستشرقين، ولا يتسع المجال لتقديم المزيد. ولكني أودّ في ختام حديثي هنا أن أنوه بالعمل المهم الذي قدمته الأستاذة الدكتورة علياء شكري في كتابها المذكور من قبل، بعنوان «منهج جديد في جمع ودراسة التراث الشعبي»(٩). وهو توثيقٌ علميّ يبرز الجوانب المنهجيّة والموضوعيّة للمحاولة التي قام بها المستشرق الألماني «إنوليتمان» لتسجيل التراث الشعبي المصري في ثلاثينات هذا القرن. فلعل قراءة هذا العمل تتيح للقارىء فرصته للوقوف على المزيد من إسهامات بعض المستشرقين الأوربيين في حركة البحث العلمي للتراث الشعبي المصري، والتحقق من صدق ما قلته في هذه الخاتمة. ●

●●●

الحواشي

١ – لقد تأسست هذه المدرسة ونهضت على أكتاف عددٍ من الروّاد والأساتذة، الذين يدين لهم هذا العلم بالفضل العميم، ومنهم عبد العزيز الأهواني، وسهير القلماوي، وعبد الحميد يونس، ومحمود أحمد الحفني، وأحمد رشدي صالح، ومحمد الجوهري، وعلياء شكري، ونبيلة إبراهيم، وأحمد مرسي، وصفوت كمال، وعبد الحميد حواس، وغيرهم.

٢ – من أهم هذه الإسهامات:

– علم الفولكلور، لمحمد الجوهري.

– التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية، لعلياء شكري.

٣ – طبعت موسوعة وصف مصر الضخمة مرتين، الأولى استغرق العمل فيها من ١٨٠٩ إلى عام ١٨٢٢، والثانية بدأ العمل فيها عام ١٩٢١ وانتهى في عام ١٩٢٩م. وتشتمل هذه الموسوعة على دراسات عن نواحي الحياة المختلفة في مصر كما شاهدها علماء الحملة الفرنسية ومهندسوها. وبعض هذه الدراسات طويلة، حيث يمكن نشرها مستقلة في كتاب، وبعضها متوسط الطول، وبعضها ملاحظات محضة فقط، لا تستغرق أربع أو خمس صفحات.

انظر: وصف مصر. الدولة الحديثة، الترجمة الكاملة: دراسة في عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين، تأليف ج... دي شابرول، ترجمة زهير الشايب. وقد تناولت علياء شكري هذا العمل في كتابها التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوروبية الذي أشرت إليه فيما سبق: ٩ – ٦٦.

٤ – Lane, E. W., Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, ١٨٣٦.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية عدلي طاهر نور، وطبع في القاهرة مرتين: الأولى ١٩٥٠م، والثانية ١٩٧٥.

٥ – علم الفولكلور: ١/٢٤٤.

٦ – Lane, E. W., Manners and Customs of the Modern Egyptians, London, ١٨٣٦.

٧ – انظر تحليلاً لكتاب العالم الألماني «هانز ألكسندر فينكلرز Winkler .ب (الفولكلور المصري) (بالألمانية)، الصادر باشتوتجارت عام ١٩٣٦، في:

– علم الفولكلور: ١/ ٢٤٥ – ٢٥٣.

– التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية: ١١٧ – ١٨٧.

٨ – علم الفولكلور: ١/٢٤٥.

٩ – التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية: ١٨٩ – ٢٢٨.

المصادر والمراجع

الجوهري : محمد.

– علم الفولكلور، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.

شابرول.

– وصف مصر، الدولة الحديثة، ترجمة زهير الشايب، ط١، القاهرة، ١٩٧٦م.

شكري : علياء.

– التراث الشعبي المصري في المكتبة الأوربية، ط١، دار الكتاب للتوزيع، القاهرة، ١٩٧٩م.

لين.

– الأخلاق والعادات المصرية المعاصرة، ترجمة عدلي طاهر نور، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥م.

Customs of the Modern Egyptians, London, 1836.

- Lane, E. W., Manners and

Ancient Times, George Harrap, London, 1927.

With Special Reference to Survivals From

Religious, Social and Industrial Life To-day,

Blackman, The Fallahin of Upper Egypt. Their

- Winfried S.

S. Blackman, The Fellahin of Upper Egypt.

Winfried

وقد تناولت علياء شكري هذه الدراسة في كتابها الذي سبقت الإشارة إليه، ٦٧ – ١١٥.